

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

نهاية طاغية

End of Tyrant

Dr. Naguib Al Keilany

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



نهاية طاغية

End of Tyrant

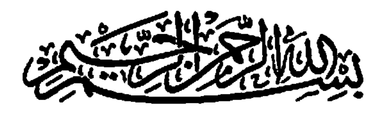


دار الصحوة للنشر والتوزيع
Telefax: +202 42 10 60 60
Mobil:+20 1114520485
daralsahoh@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

نهاية طاغية

تأليف
د. نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2015م

رقم الإيداع

2015/13258

الترقيم الدولي

978-977-255-460-7



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060

موبيل: 00201114520485

daralsahoh@gmail.com

نهاية طاغية



لم ينم هشام بن إسماعيل المخزومي ليلته.

القصر الذي يعيش فيه قصر فخم.. تضوع في جنباته الروائح الشذية؟ وحجراته مفروشة بالأثاث الجميل الذي يتناسب مع والي (المدينة) وأميرها الذائع الصيت.. والخدم والعبيد تحت أمره.. وتكفي كلمة واحدة لأن يتحرك رهط كبير كي يلبي طلب الأمير..

وكانت الفرش الحريرية تحت جنبه تبدو وكأنها أشواك حادة تنغرز في جسده، والمصابيح الزيتية التي تضيء الحجرة بدت هي الأخرى وكأنها عيون فضولية تختلس إليه النظر وتتسلل إلى حنايا نفسه، ودهاليز ضميره..

ووثب هشام من فوق سريره، وقد ظهر الاحتقان في عينيه، والشحوب على وجهه، وأخذ يطفئ الشموع والمصابيح، كل مصباح بنفخة واحدة أودعها كل ما في قلبه من قلق وحنق وندم، وحينما ساد الحجرة الظلام ولفها السكون أحس هشام بقليل من الراحة تتسرب إلى داخل نفسه وغمغم بينه وبين

نفسه: ما أروع الظلام إنه شيء متجانس غامض.. لا تصطدم العين فيه بشيء.. لا مصابيح مرتعشة، ولا ظلال متراقصة على الحيطان، ولا ستائر ملونة.. لا شيء.. لا شيء أراه إلا السواد المتجانس الممتد الذي ترتاح إليه نفسي.. أما النور فأنا أحس أنه يعريني جسدًا وروحًا.. وتململت زوجته إلى جواره وقالت والنوم يغالب إرادتها.. ويخرج كلماتها متقطعة متداخلة:

- ماذا تفعل يا هشام؟

فقال محتدًا:

- لا شيء.. لا شيء.. نامي يجب أن تنامي...

فقالت وقد أطارت حدته النوم من عينيها:

- إنك تطفئ النور. وهذا يضايقني.. أحس في الظلام بأنفاسي تحتبس.. عندئذ قاطعها قائلًا:

- تستطيعين أن تذهبي إلى حجرة أخرى إن لم يعجبك جو حجرتنا..

ودهشت زوجته للهجته الجديدة الشاذة، وقالت لنفسها لابد أنه مرهق.. إنه طول اليوم في عمل مستمر، ينظر في القضايا، ويضرب الخارجين على القانون، والأدهى من ذلك الخصوم السياسيين لبني أمية، وخاصة أهل البيت.. إنهم دائمًا مصدر متاعب منذ أن استشهد الحسين بن علي بسيوف يزيد..

لست أدري ما الذي أتى بنا إلى هنا؛ أرض المتاعب والثورة، والانقضاض على حكم بني أمية.. ليت الخليفة قد ولى هشامًا في مكان آخر غير المدينة.. لكن ماذا يجدي القول، وقد انتهى الأمر؟ وها هو قد مر عليه وقت طويل.. حتى مات الخليفة منذ أيام قليلة، وتولى الخلافة بعده ابنة الوليد بن عبد الملك، وليس من المنتظر أن يحدث أدنى تغيير.. أي أننا سنبقى هنا حيث المتاعب والانقضاضات السياسية، وحيث يوجد على زين العابدين ابن الشهيد الحسين.. ذلك الذي يتمتع بسلطان أكبر من سلطان زوجي.. والذي يتعرض لشتى صنوف القسوة والإيذاء من هشام دون أن يتحول عن رأيه في بني أمية، أو يهادن في عدائه السياسي.. إن زين العابدين رغم صلاحه وتقواه.. أساس المتاعب.. وتوقفت الزوجة عن التفكير حين قال زوجها هشام:

- هيه.. ماذا قلت؟ أتبقين في الظلام؟

- ما دمت تحب الظلام فأنا أحبه مثلك..

- كما تشائين..

وسكت..

حاولت أن تجره إلى المرح لكنه لم يستجب، ودفعها عنه رفق متعللًا بأنه يريد أن ينام فرأسه نهب للصداع، وجسده منهك والنوم عزيز المنال، فقالت زوجته وهي تبتعد عنه:

- يبدو أنك مازلت متألمًا لموت الخليفة.. وانطلقت منه فجأة ضحكة ساخرة وقال:

- ليمت الخليفة أو يبق.. فالأمر بالنسبة لي سيان.. إننا لا نفكر في الخلافة إلا بالقدر الذي يهمنا.. بالمشاكل التي تربطنا بها.. أنا لا أفكر في الخلافة إلا من خلال عملي واليًا للمدينة.. من خلال وضعي الشائك، وماضيّ المليء بالحوادث والصراع الدامي..

ولم تفهم تمامًا ماذا يقصد زوجها، كانت كلماته غريبة تنبعث منها رائحة اليأس والخوف، وتحمل في ثناياها بوادر الإشفاق من المستقبل، وما يطويه من أسرار ومفاجآت..

لكن زوجته -على الرغم من الحيرة والقلق- آثرت أن تصمت، وتداري قلقها كي تتيح الفرصة لزوجها كي ينام بصداع رأسه كي تخف حدته.

ونام هشام مستلقيًا على ظهر، وظلت عيناه مفتوحتين إلى لا شيء عبر الظلام المتراكم الممتد، وجبينه ينضح بالعرق، وأنفاسه تتلاحق في حشرجة مسموعة..

لم يسكب الظلام الهدوء على نفسه كما توهم، ولم يزرع في قلبه السكينة والأمن، بل أخذ يطبق على صدره، ويوشك أن يكتم أنفاسه حتى خيل إليه أنه في شبة غيبوبة، ومن خلال قلقه الرهيب ورأسه المصدعة وأفكاره المتلاحقة المضنية.. بدت له أشباح الماضي التي يجسمها الظلام ويزيدها بشاعة ورهبة..

ذلك الأعرابي الذي جاء إليه وقال له: يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومي أنت ظالم.. لم يحاول أن يسأله عن سر تهجمه عليه.. بل المرأة التي اعترضته في المسجد ذات يوم ولم يكن يبدو من وراء لثامها غير عينين تبرقان بالثورة.. وصاحت في وجهه قائلة:

يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومي.. أنت ظالم.. فعاملها بقسوة، وذلك المولى من موالي أهل البيت حين صادفه في الطريق، واندفع إليه وكله غيظ وحنق، وصرخ في وجهه: أتؤذي أهل البيت.. أهل الرسول وعلى مقربة منك قبر الرسول.. يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومي.. أنت ظالم..ظالم؟؟ ولن ينفعك بنو أمية حين تقف أمام الله...

وعلي زين العابدين.. لكم تعرض له هشام بالإيذاء واعترض طريقه، وهاجمه في عنف بالغ لا هوادة فيه.. حتى ضج الناس بالشكوى واستجاروا، ولا مجير. والدماء التي سالت باسم أمن الخلافة.. وهدوء بال الناس وأولئك الذين رسفوا في الأغلال باسم الخليفة.. باسم الدين..

وجوه كثيرة كانت تتلاحق في الظلام، كلها حقد مغلوب.. وعيون كثيرة كانت تبرق في الظلام كلها صيحات وصرخات وينابيع تتفجر بالدماء البريئة والآثمة.. وخطب نارية متوعدة من فوق المنبر..

تمامًا مثلما يفعل الحجاج بن يوسف في العرق.. الظلام مليء بشتى الصور.. والأشباح .. والضحايا.

ووثب هشام من فوق سريره مرة أخرى مذعورًا..

ولم يتمالك نفسه، أو يضبط أعصابه المتوترة أنكفأ على وجهه، واصطدمت جبهته بصيوان كبير على ميمنة السرير فشجت رأسه، وسال دمه على وجهه ساخنًا دافئًا.

وصرخت زوجته مرتاعة:

- ماذا جرى لك يا هشام؟

- لا شيء.

وأقبل بعض الخدم بالباب حينما تناهت إلى أسماعهم أصوات الضجيج وصرخة السيدة زوجة الأمير هشام.

وصاح هشام بصوت أجش حاول أن يكون صارمًا لا أثر للخوف أو الارتعاش فيه؟

- أضيئوا الأنوار..

وفي دقائق قليلة كانت الحجرة هادئة ساكنة يغمرها الضوء، وهشام مضطجع على سريره معصوب الرأس وقطرات من الدم الأحمر تترك أثرها على الضمادة البيضاء وزوجته تجلس إلى جواره تكتم انزعاجها ووجلها، وبالرغم من ذلك لم تستطع أن تخفي الحيرة والقلق المرتسمين في نظراتها الخائفة، وتعبيرات وجهها الذي ساده الشحوب.

وبعد فترة صمت طويلة قالت والخوف يكاد يعقد لسانها:

- إنك تخفي عني شيئًا يا هشام..

- هذا حق..

- أتسخر مني يا زوجي الحبيب؟

- لا أسخر ولكنها الحقيقة المرة يا زوجتي..

- ماذا تعني؟

فأجابها بصوت تعروه بحة تعسة:

- جاءني صديق قديم من دمشق اليوم خفية دون أن يشعر به أحد، وحمل إليّ أنباء أزعجتني..

- خيرًا إن شاء الله يا هشام.

- لم أشم فيما قال خيرًا، بل ضياعًا وحسرة.

- أفصح فقد آلمتني..

- هناك نية لعزلي من الولاية..

فقالت مقاطعة:

- وتوليتك في مكان آخر؟

فقال يائسًا.

- كلّا. إن الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك سوف يعزلني نهائيًا ولن يوليني في مكان آخر.. يبدو أنه سوف يغير السياسة التي درج عليها أبوه نحو أهل البيت، ونحو علي زين العابدين ابن الحسين بالذات..

وأطرقت زوجته صامتة، بينما استطرد هو في حديثه:

- بعد أن كنا كل شيء فقدنا كل شيء.

ثم أجهش بالبكاء..

وأجهشت معه زوجته -هي الأخرى بالبكاء.

وقالت الزوجة وهي تحاول أن تتماسك:

- لا أريدك أن تبكي..

- صدقت.. لا تريد المرأة أن ترى دموع زوجها..

واستأنفت حديثها.

- لا ينسى لك بنو أمية معونتك لهم لقد كنت سيفًا يحمي سلطانهم، ويسوق الناس إلى طاعتهم، والقضاء على كل ثورة تنطلق ضد حكمهم..

فقال وهو يجفف دموعه:

- هذا صحيح.. لكن مما يحزنني أنني كنت أداة غاشمة في يدهم.. أسلك أي سبيل، بل أبشع السبل للقضاء على مناوئيهم، وأجتلب سخط الناس في سبيل رضاهم، لقد أخذوني لحمًا وعظمًا، وتركوني..

خسرتهم وخسرت الناس.. لم أنل شيئًا غير سخط الخالق والخليقة.. لو كنت عادلًا شفوقًا بالناس لخسرت فقط بني أمية، وبقي لي الرصيد الكبير.. الرصيد الذي لا ينفد، رضا الله ورضا الناس.. كنت بالأمس حذاء جديدًا في قدم الخليفة القديم

يدوس به أعناق المعارضين والثائرين.. أما اليوم فحذاء قديم مرقع يرمى به في الخرائب.. فانتصبت زوجته واقفة وقالت محتدة.

- لا تقل هذا الكلام.. إنك أكبر من ذلك بكثير .. والحكم والحكام في كفة القدر.. بالأمس خليفة وغدًا خليفة جديد .. لا أحد يرى ما تأتي به المقادير.

فغمغم بصوت جريح:

- أجل، لا أحد يدري ما تأتي به المقادير..

وتناهى إلى أسماعهما من بعيد صوت المؤذن يدعو الناس إلى صلاة الفجر:

(الله أكبر.. الله أكبر).

وكان الصوت نديًا أخاذًا، فيه روعة الحب، وفيض التقوى، وندى الإيمان خاصة تصل إلى القلب مع الأذن، تذكر الإنسان بأشياء كثيرة مختلطة غامضة، لكن في غموضها شوق لذيذ عجيب، أشياء مثل الحياة والموت والقبر والنعيم والضراعة، أشياء كثيرة.. كثيرة جدًا..كثيرة جدًا.. لها نكهة خاصة يدركها أكثر ما يدركها المحزونون والخطاة والذين يوشكون أن يودعوا الحياة..

وارتخت جفون هشام على الرغم منه..

ودارت رأسه وخيل إليه أن الحجرة تدور معه، وأن الشموع والمصابيح المضاءة هي الأخرى تميل وتنحني، ثم تستقيم من جديد وأغفى ساعة أو بعض ساعة.

وحينما فتح عينيه همس في إشفاق.

- خير إن شاء الله، لقد رأيت في منامي رؤيا عجيبة.. يبدو أن الأمر ليس بسيطًا، ولكن هناك أشياء أخرى..

وتنهد هشام في أسى، وكانت تنهداته تطفح بمزيد من الحزن والخوف، وشعر أنه أصبح شيئًا آخر غير ما يراه الناس، إنه في ثوب أمير عالي الشأن وحوله كل مظاهر المجد والعظمة، لكن حقيقته تخالف ذلك تمام المخالفة، إنه أمام نفسه إنسان صغير.. ضئيل.. مرتجف .. حياته كلها مرتبطة بخيط واه.. خيط الإمارة.. وعندما يتقطع هذا الخيط فسوف يهوى من حالق.. ويرتطم جسده الثقيل وعظامه بالأرض الصلبة فتصرعه، أو تهشم عظامه وتتركه إنسانًا ضعيفًا تعسًا يستدر العطف ويستجلب الرثاء..

وقالت زوجته:

- فيم تنهدك يا هشام؟

فقال يائسًا:

- ألا تعلمين؟

- أعلم أن الأمر بيد الله لا بيد الخليفة.. كلنا يعلم ذلك وليس هذا بمانع يا عزيزتي..

- هذا ضعف الإيمان يا هشام..

- بل تستطيعين أن تقولي: إني أخطأت في حق البشر.. ويجب أن أخاف الخليفة وأخاف الله.. والإيمان في هذه الظروف هو إيمان الذي يوقن بالشر يأتيه ويظل على نار الانتظار.. ولهذا تعذبني الذكريات وتدور في نفسي الهواجس.. والحقيقة يا زوجتي أن خوفي قد تضاعف بصورة بشعة، لا لخير أتاني، بل بسبب رؤيا رأيتها هذه الساعة وأنا نائم.. أتدرين ما هذه الرؤيا؟ إنها مخيفة.. مخيفة جدًا لو خضت معركة وتعرضت للموت كان إشفاقي يضارع حالتي وأنا أفيق من نومي..

وقالت زوجة هشام وقد فاض بها الضيق وانتقلت إليها عدوى الخوف.

- قل ما رأيت يا هشام.. قل حتى تخفف عن نفسك بعض ما أصابها من قلق واضطراب، ومن يدري؟ قد تكون هذه الرؤيا فاتحة خير، وقد أستطيع أن أفسرها لك تفسيرًا مريحًا..

- لا أظن ذلك، إنها في غاية الوضوح..

- ويحك يا هشام ..إنك تعذبني وأنا أحاول جاهدة أن أصرفك عن هذا التفكير القاتل، ولكنك تتمادى في تعذيب

نفسك.. ماذا أقول أكثر مما قلت لك يا عزيزي.. لترو لي رؤياك، فالشمس أشرقت، وعليك أن تبادر بالذهاب إلى مقر حكمك، ولعل الله يكتب لك الخلاص ويهبك التوفيق والسداد.

وأحنى هشام رأسه وأسند خده على قبضة يده اليمنى، ثم غاب لحظات في تفكير عميق..

وبعدئذ رفع رأسه متوجهًا ببصره إلى سقف الحجرة شارد النظرات كاسف الوجه، وعلى سيمائه سطور ألم ناطق، تثير الإشفاق أكثر مما تثير الشماتة وتكلم هشام وزوجته كلها آذان مصغية لما يقول:

- أجل يا عزيزتي.. رأيت كأنني في قصر فخم.. تحيطه الحجاب والحراس.. تتراءى حوله وفي أبهائه الفاتنة شتى ألوان النعيم والثراء والسلطان، وكنت جالسًا على أريكة عالية، أو منبر.. لا أذكره تمامًا، ولكني أثق تمامًا أن المنصة التي اقتعدتها كانت ملوثة بالأوحال، ويدي هي الأخرى فيها شيء يشبه الروث، وكلما حاولت أن أنظفها عادت كما كانت.. ولا أدري لماذا كان يحدث ذلك.. واستسلمت في النهاية لهذا الوضع الذي يثير التقزز ويبعث على الضيق حتى طاب لي المجلس الذي يعلو هامات من أمامي، ورضيت بما أنا فيه على غضاضة.. شيء مزعج يا زوجتي.. أليس كذلك.؟ لكن لأكمل حديثي فأنا أشعر بضيقك وتبرمك من أمري.. وتلفت حولي يا عزيزتي.. وصفقت في عنف.. وأحسست بمراجل الغضب تتفجر في قلبي

الثائر الحانق: أين العبد الأعجمي، لأعذبنه عذابًا شديدًا أو لأذبحنه.. ولم أكد أنهي حديثي حتى لمحت العبد الأعجمي يأتي مهرولًا حاملًا في يده الكأس السوداء، وفي يسراه وعاء كبير يمتلئ بسائل أسود..

وكان العبد يرتعد، وعلى شفتيه ابتسامة مرتجفة، ابتسامة أعرفها تمامًا عند أولئك العبيد الذين يطيعون الأمر دائمًا، لكنهم يخالفونه تمام المخالفة بضمائرهم وقلوبهم.. وتفحصت ابتسامته المرتجفة ونظراته الزائغة الخائفة.. وزحفت ببصري إلى الكأس السوداء، والسائل الأسود، لكني طربت كثيرًا حينما لمحت سوطًا معلقًا في حزام حول وسطه فوثبت فوق الكرسي واختطفت السوط وأهويت به في تشف عجيب.. ولذة شاذة.. على وجه ذلك الأعجمي وجسده.. كان يصر على أسنانه من الألم.. وكانت ملامحه تنقبض وتنبسط مع كل ضربة.. غير أن الابتسامة المرتجفة بقيت كما هي دون تبديل أو تغيير.. ولم تأخذني به شفقة، ولم يوقف قسوتي رحمة، ولم أكد أنتهي من عقابي له وأعود إلى المنصة الملطخة بالوحل حتى وجدت ذلك العبد يصعد درجتين ثم ينحني أمامي في خشوع وتذلل ويقول:

- مولاي الأمير.. الكأس السوداء.. والخمر السوداء.. والسوط.. الثلاثة معك يا مولاي العظيم.

الابتسامة المرتجفة لم تزل فوق شفتيه تتلوى مثل الثعبان. وأحسست بكره شديد لابتسامته تلك ولخشوعه وتذلله ..

فصرخت فيه لا تبتسم واصلب عودك، وبعد ما فعل ما أمرت به، قرب الوعاء مني فوجهت إليه نظراتي ثم أختبرته بأصبعي فوجته سائلًا لزجًا غليظ القوام.. نتن الرائحة، تعافه النفس، ويبعث على التقزز والغثيان فزجرت فيه:

- حسن .. حسن.. اغرب عن وجهي وضع الوعاء أولًا والكأس السوداء إلى جواري..

وحول المنصة تراءى لي خلق كثير.

كانت وجوههم متشابهة في ملامحها وسمرتها، ونظراتهم جميعًا مصوّبة إلي .. وكأنها سهام ترشقني، والجفون منتفخة تجحظ منها عيون محترقة بالعذاب. وقد ضرب الجند حولهم ستارًا يمنعهم من الإفلات ويرغمونهم بالقهر والإرهاب على البقاء في الساحة الواسعة.. ومن بعيد لمحت مئذنة من نور كعمود ضخم ضارب بين السماء والأرض. فلوى الناس رءوسهم صوب النور المتوهج عند المكان الذي دفن فيه الرسول.. وحاولوا أن يندفعوا إليه في شوق مجنون، لكن السياج المنيع الذي أقامه الجند حولهم قد حد من انطلاقهم، وعاق انفلاتهم فبقوا في أماكنهم تنهمر منهم الدموع ويشقيهم الحرمان.. وبانت الثورة والحقد في عيني رجل قريب من المنصة وامرأة تقف إلى يسره.. فأمرت الجند فجروهما إليّ جرًّا.. وصيحات المرأة وتوسلاتها تتعالى وتطغى على ما عداها من

الأصوات وملأت الكأس السوداء من السائل الأسود وقلت للرجل:

- اشرب.. (لابد أن تشرب)

ولما تعزز وأبى، أمسك به الجند وجرعوه الكأس رغم أنفه.. كان يتلوي ويحاول أن يفلت لكن هيهات.. ثم دفعته بيدي بعيدًا وأنا أسوقه بالسوط وجنودي يفعلون مثلما أفعل.. ثم ثنيت بالمرأة وفعلت بها ما فعلت بالرجل.. وهكذا أخذت أمواج الناس تتدافع نحوي.. منهم من يأتي طائعًا مقهورًا دون جهد. ومنهم من يسوقه الجند سوقًا إلي فأسقيهم من الكأس السوداء وأضربهم بالسوط ضرب غرائب الإبل .. كل ذلك والمئذنة المضيئة لدى قبر الرسول تزداد إشراقًا وروعة، والناس يزدادون تلهفا وتحرقا إليها، والجند يزودنهم عنها كلما أشرت إليها.

ولمحت من بعيد رجلًا يقدم عليَّ في خطوات هادئة وقور.. فوق رأسه تاج يشع كما تشع المئذنة التي تتراءى من بعيد واقترب الرجل مني، وملأتني الدهشة وأنا أراه يخطر في شموخ وكبرياء، لا تبدو عليه أثارة من خوف أو أثارة من إحجام. الابتسامة التي على ثغره نابضة صافية، والنظرات التي تنطلق من عينيه وادعة رائقة، والناس يرمقونه ويحيطون به من كل جانب، ورأيت نظراتهم تفيض بالحنين نحوه، لم يكن واضحًا لدي من هو، فرأيتني أصرخ طالبًا العبد الأعجمي فيأتي مهرولًا، والابتسامة المرتجفة على ثغره من جديد، فقلت له:

- أيها الوقح.. من هذا الرجل؟

- الجميع يعرفونه يا مولاي..

فقلت له وأنا أهوى بالسوط على وجهه.

- قلت لك من هو أيها الوغد..؟

- هذا زين العابدين بن الحسين يا سيدي الأمير..

فهتفت مغتاظًا:

- إليّ به في الحال، سوقوه إلي دون شفقة.. إنه يناهض بني أمية، ويعارض سياستهم..

وملأت الكأس بالشراب الأسود اللزج حتى فاض على يدي منه شيء، فاختلطت الأوحال بالشراب وتكون منهما خليط منفر وكان زين العابدين قد أقبل ولم يخالط حركاته ارتباك، أو يبدو على وجهه بادرة من ذعر، ومددت إليه يدي بالكأس وقلت له اشرب.. وسوف تشرب هذا الكأس مرتين أو ثلاثًا.

فتناول الكأس مني دون انفعال لم أر غير شفتيه تتمتمان بصوت خفيض:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه:112]

وغمرتني الدهشة وأنا أرى الكأس الأسود يتحول في يده إلى كأس بللوري شفاف، مضيء كما تضيء العمامة فوق رأسه، تلك العمامة التي وددت أن أطفئها بضربة من قبضة يدي الملطخة

بالأوجال، واستحال السائل الأسود إلى مادة صافية لا أثر للأوشاب أو التلويث فيها وتجرعها زين العابدين باسماً وهو يقول:

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس.

ولم أفهم معنى لكلماته، و أهويت عليه بالسوط كما فعلت مع أفراد سبقوه، وكان زين العابدين يمضي في طريقه والناس تحنو عليه، وتخشع له بنظراتها الحانية، وهو لا يتأوه أو يتألم تحت وطأة السياط، وكأني أضرب في قطعة من الصخر، وعلى الرغم من هذا فقد تعالى ضجيج الناس وتكاثرت احتجاجاتهم، ولم تجد صرخات أو تهديد الجنود لهم، وأخذ زين العابدين يبتعد رويدًا رويدًا، وأخذت أزاول المهمة العجيبة التي جلست من أجلها وانتصف النهار أو كاد يا زوجتي العزيزة أو هكذا خيل إلي.. وأحسست بملل شديد وكرب نفسي، وفجأة رعدت السماء وانقض القصر الشامخ الذي أجلس أمامه وانهارت أعمدته، وتلفت مأخوذا يمنة ويسرة، والحيرة قد سطت على كل منافذ الفكر، ثم نظرت من جديد إلى الجموع الواقفة، وإلى سياج الجند الذي يمنعهم من الهروب أو الانطلاق.

ورأيت العبد الأعجمي يقبل وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة.. أجل.. ابتسامة ساخرة هذه المرة.. ولم يكن خائفًا أو متذللًا بل أقبل في ثقة وشجاعة يحسد عليها، ثم انتزع السوط من يدي، وحمل الوعاء الأسود بشرابه وكأسه إلى مكان قريب .. أشار

للناس بيده فتدفقوا عليه من كل فج، وهم يرسلون صيحات تصم الآذان، وفي يد كل واحد منهم كأس مثل الكأس التي كانت معي، وملئوا كئوسهم ثم اتجهوا نحوي.. وبينهم زين العابدين بن الحسين.. في نفس الوقت هتفت بالعبد الأعجمي كي يقبل عليّ لكنه قهقه ساخرًا وأتاني بكأسه ثم ضغط بأصابعه الغليظة على وجهي وبين فكيّ، حتى أرغمني على فتح فكي وهو يقول:

- اشرب.. نفس الكأس..

فدفعت الكأس بيدي وأنا أتوعده، ولكنه تناول سوطه وهوى على وجهي في قسوة مؤلمة ترنحت لها وفقدت السيطرة على أعصابي وقوتي، ووجدتني مستسلمًا أشرب الكأس ويا لها من كأس.. كانت لزجة..نتنة.. مرة المذاق، أحاول أن أتقيأها فلا أستطيع . وقال العبد والشرر يتطاير من عينيه وكأنهما عينا مارد جبار:

- لا تجزع.. ماذا ستفعل لو علمت أنك ستشرب آلاف الكؤوس..؟

- آلاف الكئوس..؟

- أجل.. انظر إلى هذا الحشد الحاشد وانظر الكئوس التي معهم.. سوف تشربها جميعًا.

- سوف تنفجر أمعائي..

- ولِمَ لم تفكر في أمعاء الآخرين من قبل..

- لأني.. لأني..

- لأنك أناني.. حقير.. يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومي..

ودارت الكئوس على ثغري تأتيني ملأى ثم تشيح عني فارغة، والسياط تنهال على جسدي ووجهي لا حصر لها، ومن بعيد لمحته قادمًا فارتعدت فرائصي. وخارت قواي كان ذلك هو زين العابدين بن الحسين فقلت في نفسي (ويحي منه) سوف يذيقني هوانًا ما بعده هوان.. لكني فوجئت به يأتيني ولا كأس في يده، ونفس الابتسامة الرائقة الصافية تتألق على ثغره وفي نظراته.. ووجدت الناس من ورائه بلا كئوس.. وحينما اقترب مني مسح على رأسي، وهم أن يقول كلامًا! لكنني أحسست بك تتقلبين بجواري على فراش النوم، ثم تقع يدك على رأسي الملتهب الذي يغمره العرق فأصحو من نومي، ويذوب وهم ذلك الحلم الرهيب كما يذوب الثلج تحت وهج الشمس، كان الألم الذي يحز في نفسي، والحزن الذي غمر فؤادي وما برحا يهزان كياني هزًّا عنيفًا وصور الرؤيا الرهيبة تمر بذاكرتي المتعبة المكدودة..

ولم يجد هشام في نفسه رغبة أو دافعًا يدفعه للذهاب إلى مقر الإمارة، كانت أفكاره السوداء توهن من عزيمته، وتشاؤمه الشديد يهد من نشاطه، وكيف يذهب وكرسي الإمارة يهتز تحته، بل يوشك أن يقذف به بعيدًا إلى هوة سحيقة.. ولا شك أن

شائعة عزلة سوف تصل إلى آذان الناس إن عاجلًا أو آجلًا وعندما يطرب الأعداء ويتيه الحاقدون سرورًا وشماتة، وتنتقل همسات الهزء والسخرية من شارع إلى شارع، ومن قبيلة إلى قبيلة، ويعرف القاصي والداني أن هشام بن إسماعيل المخزومي الجبار العتيد أصبح ضعيفًا لا عون له ولا سند، وتمتم هشام في حيرة:

- ماذا أفعل يا زوجتي؟

- تذهب إلى مقر حكمك..

- أكون كمن يسوق نفسه إلى حفرة نار..

- ولم؟

- أشعر كأني دخيل.. لم يعد المكان مكاني .. ويدي خالية من أية سلطة.. ومواجهة الجند والناس في مركز مزعزع -أمر قاتل..

فقالت زوجته في إصرار:

- لم يعزلك الخليفة بعد..

- هذا حسن.. لكنه أمر مقرر.

- إن رجولتك تفرض عليك أن تؤدي واجبك حتى آخر لحظة..

فقال وهو يطأطئ رأسه آسفًا:

- أجل أنا جندي من جنود الخليفة وطاعتي له يجب أن تكون طاعة عمياء.

ومضى هشام في شوراع (المدينة) يحيط به موكبه الرسمي كالعادة وعلى الرغم من ذلك فقد كان الموقف كابيًا حزينًا، الجنود لا يجدون في أنفسهم أثارة من حماس كي ينطلقوا بجيادهم هنا وهناك ويفسحوا الطريق أمام الأمير والمارة، لم تكن هذه عادتهم، كانوا بالأمس حينما يرون موكب الأمير يدلفون إلى شارع جانبي كي يتجنوا لقاءه حتى لكأن مجرد رؤيته تثير حفيظتهم وتدفعهم بدافع الخوف، وإذا لم يدلفوا إلى شارع جانبي كانوا يقفون في خشوع نظراتهم كبيرة وابتسامتهم مصطنعة مرتجفة ترتسم على ثغورهم.. أما اليوم فلا يمر أحد. الناس يمرون في الطريق وكأن الأمير واحد منهم لا يستوجب خشوعًا أو هروبًا إلى طريق آخر، لم لم يعودوا يطرقون حياء وخوفًا بل نظراتهم ترتفع إليه لأول مرة في فضول وشوق؟!

وغمغم هشام بينه وبين نفسه:

«أيها الأغبياء.. الآن ترفعون نظراتكم إليَّ لتروا كيف هويت من أعلى؟ كيف لبس وجهي ثوب الكمد والحزن؟ وكيف احتقنت عيناي من طول السهر؟ حملقوا فيَّ كيف شئتم.. وتشفوا بمنظر الأمير الحزين الذي يوشك أن ينتهي إلى لا شيء.. لا أنكر أنكم مساكين وأنني ظلمتكم، لكن شماتتكم حمق وغدر وغباء. إن شماتتكم تمسخ إنسانيتي وتجعلني أكرهكم، لا من أجل بني أمية هذه المرة، ولكن من أجل نفسي.. من أجل هزيمتي التي

تتلذذون بمشاهدتها إن العزل كارثتي الكبرى.. أما الشماتة فهي شيء فوق الكارثة الكبرى.. الموت أهون منها.

وبرقت في ذهن هشام خاطرة.. يا لها من حلم منعش جميل .. لماذا لا تكون شائعة العزل مختلقة من أساسها؟ ما أجمله من يوم ذلك الذي أثبت فيه مركزي، وتعود مكانتي إلى احترامها ووقارها ويبقى هشام بن إسماعيل المخزومي واليًا على المدينة رغم أنف الحاسدين والحاقدين والكائدين! لكن هل سيعود مرة أخرى إلى البطش والإرهاب وإرغام الناس على الخضوع له، والتسبيح بعدله حتى ولو ملأ ربوع المدينة جورًا وعسفًا؟ لا لا لو حدث ما يحلم به فعلًا فلسوف يخشى الله ويتقيه وينصف عباده، ويحظى بمحبة الخلق والخالق. إن تجربته الماضية كانت درسًا عميقًا يجب أن يحفر في ذهنه حفرًا لا يمحوه سلطان جديد أو انتصار طارئ.

وارتاح هشام لهذا الخاطر، وانجابت عن قلبه غشاوة الألم والحزن إلى حين، وشعر بنسمة رطبة منعشة تلامس جبهته، فرفع رأسه ليستنشق منها، فوقع بصره على مئذنة قبر الرسول، فتذكر على الفور تلك الرؤيا الرهيبة وتذكر المئذنة النورانية التي تصل السماء بالأرض، والتي كان تجذب إليها الناس جذبًا، فيديرون إليها رءوسهم ويشرئبون إليها بأعناقهم ونظراتهم المشتاقة، وسرعان ما غاوده ما كان يكابده بالأمس من هم وقلق

وأحزان.. ويبلغ الموكب دار الإمارة، واتخذ هشام مجلسه مثلما كان يفعل كل يوم، والصمت يسود المكان، ويلقي عليه جوًا كئيبًا، يوحي بالكثير من الحيرة والقلق، وبعد فترة قصيرة أراد هشام أن يقطع حبل الصمت ليبدد ما غشي المجلس من كآبة ووحشة فصاح بكاتبه:

- هل أعطيت الصدقات لمستحقيها؟

- كلا يا سيدي الأمير..

- والجند هل أخذوا مرتباتهم؟

- كلا سيدي الأمير..

- إذن لم تفعلوا شيئًا؟

- أجل يا مولاي..

فقام هشام والقلق يسيطر عليه:

- ما معنى ذلك؟

فأجاب الكاتب مرتجفًا:

- وصلت رسالة من الخليفة الجديد أمرت بوقف كل شيء..

وكانت لهذه الكلمات القليلة وقع الصاعقة على هشام، فانتابه مزيد من الخوف، وتوجس شرًا، لكنه تمالك أعصابه وقال:

- متى وصلت رسالة الخليفة؟

- مساء أمس..

هذا بداية الشر، والسطر الأول من المأساة التي تنتظر هشام، هل تصدق شكوكه وتتأكد ظنونه وتصبح تلك الرؤيا البشعة فألًا سيئًا كما حدثته نفسه.

- ألـم تصل رسائل أخرى؟

- كلا يا سيدي الأمير، ولكنه..

فقاطعه متلهفًا.

- لكن ماذا؟

في ذيل الرسالة يقولون انتظروا أوامر أخرى.

ودهم هشامًا حنق شديد، كان على وشك أن ينفجر، وتمنى أن يسحب سيفه وينقض على هؤلاء الرجال القائمين حوله، ويفصل رؤسهم عن أجسادهم، ويتملى بمنظر الدم المراق. خواطر شيطانية حمراء كانت تحتل رأسه، وتحرضه على التدمير والقتل والانتقام الرهيب، لكن يده تبدو وكأنها شلاء، والناس من حوله جامدون متبلدون لا يحسون بشيء، وهو بائس مسكين لا يدري ماذا يفعل، وصرخ هشام فيهم صرخة أزعجتهم، وملأتهم بالخوف والدهشة:

- اذهبوا من هنا أيها التماثيل الصخرية..

وتسابقوا إلى الباب، كل يريد أن ينجو بجلده، فالشرر يتطاير من عيني الأمير، ويمينه على مقبض السيف وجبينه ينضح

بالعرق، ونظرات الجنون تطل من محجريه ولم يبق أحد غير عبد أسود، كان على شفتيه ابتسامة مرتجفة، وترك هشام سيفه وسحب سوطه وأهوى به على وجه العبد وهو يقول:

- ما الذي أبقاك يا عبد السوء؟

وتلوى العبد من الألم ولكنه تحامل على نفسه وقال:

معذرة يا مولاي.. إنها رسالة من الخليفة..

وشرد هشام بضع لحظات ثم غمغم:

- أنت العبد الأعجمي الذي رأيته.

فقال العبد وهو في شبه انحناء:

كلا يا مولاي.. بل خادمك الأمين.. لست أعجميًّا ولكن حبشيًّا.

- إلي بالرسالة..

وزاغت نظرات هشام وهو يقرأ السطور، وتداخلت الكلمات واختلطت وبدت الرقعة أمامه وكأنها مصبوغة بلون أسود غير محدود المعالم، كلمة واحدة كانت واضحة وكأنها محفورة في الرقعة:

(العزل)

لقد حم القضاء وعزل هشام وانتهى الأمر ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ولي الأمر من بعده عمر بن عبد العزيز الشاب ذو الخمسة والعشرين ربيعًا، والذي تتحدث بمحامده الناس،

ويتغنى بسيرته العطرة الرائح والغادي، هل يريد الوليد بن عبد الملك الخليفة الجديد أن يقول للناس لقد مزقت لكم حجب الظلام، وأطلعت لكم الفجر..؟

ورفع هشام رأسه، ووجد العبد ما زال واقفًا أمامه، والابتسامة المرتجفة قد تحولت إلى ابتسامه ساخرة..وصرخ مرة أخرى:

- اخرج أيها الوغد.

وخرج العبد، وتلفت حواليه فلم يجد أحدًا، وهم أن ينادى زوجته، لكنها في قصرها.

وفكر في الجند.. كلا لم يعودوا جنوده، والخدم.. إنهم تحت سمع وطاعة الوالي الجديد.. أصبح طائرًا بلا أجنحة..

مال الذي يبقيه هنا؟

هل ينتظر حتى يأتي موكب عمر بن عبد العزيز الوالي الجديد؟

أيظل هكذا حتى يأتي الجنود بأمر الخليفة ويقذفون به ذليلًا مقهورًا؟

لقد كان يتوقع هذه النهاية السوداء منذ سرت إليه الشائعات، لكن.. لكن هذا أمر فظيع..

وتحامل هشام على نفسه، واتجه صوب الباب، وأخذ يجر قدميه جرًا، مخافة أن يتخاذل ويهوى إلى الأرض، إلى التراب..

ومناظر البيوت والحوانيت والناس الذين يزحمون الطريق ترتج تحت بصره، ورأسه ثقيل حتى يكاد يهبط به.. كل شيء فيه ثقيل حتى اختل توازنه، وقبل أن يصل إلى بيته سمع مناديًا ينادي:

- يا أهل المدينة.. لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتوليه عمر بن عبد العزيز..

- يا أهل المدنية.. لقد أمر الخليفة بعزل هشام وتوليه عمر بن عبد العزيز..

- يا أهل المدينة.. إن الخليفة أمر بأن يقف هشام أمام دار مروان بن الحكم ليقتص منه كل من آذاه، شتمة بشتمة ولعنة بلعنة، ولطمة بلطمة..

وسقط قلب هشام، وكأن الدنيا كلها قد انقضت عليه..

ليس الأمر عزلًا فحسب، بل سيقف في ميدان عام مطأطئ الرأس وسوف يمر عليه أهل المدينة صغيرًا وكبيرًا، عظيمًا ومغمورًا ليقتصوا منه، ويأخذوا بثأرهم...

يا للمهزلة.. سوف يشرب من نفس الكأس التي سقاهم منها.

إن الموت أهون من كل ذلك، وما قيمة الحياة التي يحياها بعد ذلك حيث تؤرقها ذكرى الصفعات والشتائم والبصقات التي تلطخ جبينه؟

وأسرع هشام إلى بيته وهو في عجلة من أمره، وفارقه تعقله ورزانته وأصبح يتصرف كفتى أرعن يريد أن يهرب من مصيره ولا يواجه يوم النار، يوم القصاص الرهيب، وقال وهو يتخبط هنا وهناك:

- هيا يا امرأة يجب أن نهرب حالًا الخليفة أمر بعزلي والاقتصاص مني..

وفتحت زوجته فاها دهشة، وأسقط في يدها، وشل ذهنها عن التفكير، وأخذت تنظر إلى زوجها وهو يجمع حاجاته ويعد العدة للرحيل، دون أن يعرف لنفسه وجهة، ويريد أن ينطلق في بطن الصحراء ولو أدى الأمر إلى أن يموت جوعًا وعطشًا، أما هذا الموقف الرهيب فلن يتحمله، وصرخ هشام بزوجته الواقفة في جمود وذهول:

- هيا أيتها البلهاء.. ماذا تنتظرين؟

وتحركت زوجته وأخذت تجمع ما تستطيع جمعه، وبعد ساعة كان كل شيء معدًا للرحيل.

ودار هشام بنظراته الحزينة في أرجاء القصر المهيب..

كان يودع الذكريات والأشياء والأيام التي مضت، وانتزع نفسه انتزاعًا من هذا الموقف الشديد، وهم أن يركب جواده وفجأة وجد رهطًا من الجند يحيطون به وصاح قائدهم بصوت أجش:

- إلى أين ؟

- إلى حيث أشاء..

- كلا يا هشام يا ابن إسماعيل المخزومي، أمر الخليفة بأن غدًا يوم القصاص..

- لكن..

- لا كلام.. أوامر الخليفة يجب أن تطاع.. عد إلى قصرك..

وفي الصباح كان هشام يقف متخاذلًا ذاهلًا أما دار مروان بن الحكم، والآلاف من سكان المدينة يمرون به ويردون إليه صفعة بصفعة ولعنة بلعنة، وعبد أسود يرفع سوطه ثم يهوي عليه، وعلى فمه ابتسامة ساخرة، نفس الكأس السوداء التي سقاها للناس. كأس الظلم، لكن هل يقف الأمر عند هذا الحد؟ أين زين العابدين بن الحسين؟ أين أهل البيت ومواليهم؟ لابد أنهم سوف يقتلونه، لطالما أذاقهم الهوان والعذاب.

وانتصف النهار، ثم أسفر الأصيل، وعندئذ رأى الناس زين العابدين قد جاء وحوله جمع حافل من مواليه وأهل بيته، فأوجس هشام خيفة وخيل إليه أن الموت يدنو منه مع كل خطوة يخطوها زين العابدين، فلما كان أمامه، واستسلم هشام لليأس، وبلغت روحه الحلقوم، قال زين العابدين:

- السلام عليك يا هشام..

ومد يده يصافحه، ويهز يده ويمسك بها، ومد هشام يده، ثم أسلم نفسه إليه وخفض رأسه وبكى وقال زين العابدين:

- إن كان لك حاجة فأنا قاضيها لك، وإن كان عليك دين من ولايتك فإنا نقضي عنك دينك..

فأجهش هشام بالبكاء..

ثم مضى زين العابدين، ومضى من خلفه أهله ومواليه ولم ينظر أحد منهم إلى وجه هشام في شماتة أو يؤذه بكلمة وغمغم زين العابدين وهو يبتعد عنه:

- إنه معزول، فليست له قوة، ونحن نعلو ونسمو عن إيذاء الضعفاء.

هكذا كف جميع الناس عن إيذائه بعد ذلك..

آلاف الخواطر والأفكار والذكريات كانت تتوارد على ذهن هشام طوال هذه الفترة الرهيبة، والشمس غابت أو كادت، والميدان خلا من الناس، وأصبح هشام وقصته وعهده مجرد ذكرى.. ذكرى تثير السخط والعبرة والرثاء، وسمع هشام من خلفه صوت قائد الجند وهو يقول بصوت آمر يخلو من الانفعال أو الرحمة..

- الآن تستطيع أن تذهب حيث شئت..

وجمد هشام في مكانه لحظات، ثم مشى ليأخذ زوجته ويمضي إلى حيث تقذف به الأقدار في متاهات الألم والأحزان والذكريات المريرة..